الجزء الثاني

عيـــش الإســـلام

5

ستر جمالنا

بالأمس، كنا نمشي في الشارع، ونبدو كما تبدو معظم النساء الأخريات، مع تسريحة شعرنا الرائعة، الملابس المنتقاة بعناية لإحداث أكبر تأثير ممكن، رائحة العطر تنبعث منا في أثناء يقظتنا، الأرداف التي تتأرجح، والرؤوس التي تستدير نحونا: ملكة الشارع. ثم، في غضون أيام وأسابيع، دخل الإسلام حياتنا وغيّر كل شيء. الآن، نزور تلك الشوارع نفسها من جديد مكتسيات من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين بملابس سوداء لا يظهر منها سوى العينين. أي درب قادتنا إلى هنا؟

الخطوات الأولى

في البداية، كان ستر جسدي بغطاء الرأس وملابس فضفاضة أمراً منعشاً. كنت أريد وأحتاج لتحرير نفسي من اعتمادي على مظهري. أردت اختبار نفسي، لأكتشف ما إذا كنت أتحلّى بالشجاعة للمضي قدماً بقوة شخصيتي، حضوري وأفعالي. لم يكن ذلك قراراً اتخذته بسهولة برغم أنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلى أين ستقودني تلك الرغبة المبدئية بتغطية نفسي. أفترض، بعد أن أمعنت التفكير بأسلوبي الخاص في الحياة حتى تلك اللحظة واكتشافي وجود بديل أفضل، وإن كان أكثر صعوبة، أنني ما كنت لأستطيع المضي قدماً كما كان الأمر سابقاً. كيف يمكنني أن أحقق احترامي لذاتي إذا وجدت نفسي، مرةً أخرى، أطرف برمش عيني

أو أختـار عمداً ارتداء سـروال؛ لأنـه يجعلني أبدو «فاتنة جـداً»؟ بالفعل، أتذكر أنني قلت في قرارة نفسـي: «لقد نشأتِ تعتمدين على مظهرك بتلك الطريقة لوقت طويل، ما مدى الاحترام الذي تكنينه لنفسك حقاً؟». لطالما كنت أفكّر أن إطلاق الأحكام على النساء وفقاً لقياساتهن أمر غير مقبول إطلاقاً (لهذا كنت أعارض بشدة مسابقات الجمال!)، لكن ألم نكن نحن، بطريقتنا الخاصة، جزءاً من نظام كهذا؟

تمتلـك النسـاء الجميـلات في كل أنحـاء العالم أفضـلية غـير عادلة وطريقـاً مفتوحـة أمام النجاح الاجتماعي: تسـجيلها على قائمة ضـيوف النوادي الليلية، الحصول على الشراب المجاني، السيل المتدفق من عبارات الإعجـاب. بالطبع، بالنسـبة للكثير من النسـاء الشـابات اللواتي يعرفن الاسـتفادة من قوتهن الأنثوية، يمكن لهذا أن يكون شديد الإثارة. تشعرين كما لو أن كل العالم عند قدميكِ، فقط إذا اسـتطعتِ انتقاء أصـدقاء من «الأشـخاص المناسـبين» والتسكع في «الأماكن المناسـبة». لكن ألم أشاهد تلك الفتيات أنفسهن، مراراً وتكراراً، يصيبهن الغرور، كسولات، مملات؟ كان الأمـر كما لو أنهن يعرفن آنذاك إلى أين يمكن أن يصـلن بمظهرهن وحده، وهكذا لم يعدن يشعرن بالحاجة إلى تفعيل ذكائهن، وحس دعابتهن، وطموحهن، أو أن يمتلكن شخصية وذهنية خاصة بهن!

برغم أن حالتي لم تكن بذلك التطرف، عرفت أنني كنت مستعدة لإجراء تغيير. وهكذا، في اليوم الذي أعقب عودتي من مصـر، أخذت قطعة قماش وربطتها حول رأسـي. لم تكن تلك، على أي حال، المرة الأولى التي أقوم بها بذلك، كنت غالباً أرتدي وشـاحاً للرأس عند الاشـتراك في الاستعراضات الزيمبابوية التقليدية مع فرقتنا، إضـافة إلى أوقات أخرى، وخاصةً عندما

يكون شعري «بحالة يرثى لها»! لكن الأمر كان مختلفاً بطريقة ما هذه المرة. لم أكن أضع تلك القطعة من القماش للإدلاء بتصريح ثقافي ـ «أنا سوداء وفخورة بذلك» ـ كنت أفعل ذلك لكبح جماح جزء معين مني، وإفساح المجال لمساحة خاصة صغيرة لنفسي، حتى إذا لم يكن سوى شعري مغطّى فقط.

هكذا في ذلك اليوم، قطعت أولى خطواتي المترددة نحو الغطاء. وأعترف أن ذلك كان بائساً. لم يكن أحد ينظر إلي، ولم يكن هناك إطراء أو شيء من هذا القبيل، شعرت بأنني غير مرئية تماماً. استمر ذلك نحو نصف يوم. ثم ثار شيء ما بداخلي. كنت أفكّر، يا إلهي، لا تنظروا، لا تقارنوا بيني وبين آخر صديقاتكم، ولا تحاولوا تخمين قياساتي، جسدي شأني وحدي.

يتملّكني هذا الشعور منذ ذلك الوقت. وينتاب ذلك الشعور كل النساء اللواتي يقررن تغطية أنفسهن وجعل أجسادهن أمراً خاصاً بهن.

رحلات التحوّل

تطلّب الأمر انقضاء عدّة شهور بعد ارتداء وشاح الرأس؛ حتى أفكّر في ارتداء خمار «تقليدي»، وهو الوشاح الذي يغطي الرأس والعنق والصدر. أعتقد أن أحد الأسباب كان أنني ما زلت موضع اهتمام غير مرغوب به من الشباب الذين اعتقدوا أنني «أخت سوداء واعية»، وأنني «غير مرتبطة». أدركت أن أوشحة الرأس لم تكن تفي بالغرض المطلوب كما كنت آمل منها. لكن الشيء الأهم، أنني وسارة أدركنا، عبر دراستنا

المعمّقة للدين، أن الحجاب واجب ديني، وجزء لا يتجزأ من خضوعنا وشكل مهم من أشكال العبادة.

«التقوى ـ الخوف والمهابة من الله ـ هي السبب في قيامك بذلك أساساً. لقد طلب منا الله أن نقوم بذلك، وهذا واجب علينا. إنه مثل تناول الطعام والشراب ...» أم صفوان.

ستر النساء المسلمات لأنفسهن مذكور في القرآن، في سورة النور:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: 31].

وفي سورة الأحزاب، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59].

تذكر عائشة، زوجة النبي ﷺ والمعلمة البارزة بطريقتها الخاصة، في حديث ورد في صحيح البخاري أنه عندما سمعت نساء المدينة، الأنصار، هذه الآيات، مزّقن أوشحتهن وسترن رؤوسهن ووجوههن بها.

بالفعل، الحجاب مذكور في القرآن، والحديث ووضعته الأجيال الأولى من المسلمات. إنه ليس مجرد بقية من ثقافة بدوية تغلغلت بطريقة ما في التعاليم الإسلامية، الحجاب إسلامي.

بنـاء على هذه البراهين والكثير غيرها، عرفنا أن ملابسـنا الخارجية ينبغي أن تحقق أشياء معينة. هذه الأشياء هي:

- ينبغي أن تغطي الجسـم بأكمله، مـا عدا الوجه واليدين (يعد بعض رجال الدين الإسلامي أنها يجب أن تغطي الوجه).
- ينبغي ألا تكون ضيقة بحيث تظهر جسد من ترتديها.
- ينبغي ألا تكون شفافة.
- ينبغي ألا تكون زاهية الألوان.
- ينبغي ألا تكون ملابس مخصصة للرجال.
- ينبغي ألا تكون ملابس مخصصة لغير المسلمات.
- ينبغي ألا تكون ملفتة للنظر أو فاضحة.

هنـاك أيضـاً قواعـد عامة تخصـ ملابسـ الرجال المسـلمين. هذه القواعد هي:

- ينبغي أن تغطي المنطقة بين السُرّة والركبة.
- ينبغي ألا تكون ضيقة في هذه المنطقة.
- ينبغي ألا تكون شفافة في هذه المنطقة.
- ينبغي ألا تكون ملابس مخصصة للنساء.
- ينبغي ألا تكون ملابس مخصصة لغير المسلمين.
- ينبغي ألا تكون ملفتة للنظر أو فاضحة.

- ينبغي ألا تكون من الحرير.
- ينبغي رفع الثوب السفلي فوق الكاحل.

إضافة إلى هذا، ليس مسموحاً للرجال التزين بالذهب، ومطلوب منهم إطلاق لحاهم، وفقاً للسُنّة، كما فعل النبي ﷺ. النساء، من جانب آخر، مُطالبات بإزالة الشعر!

أتذكر اليوم الذي قرّرت فيه مع صديقتي سارة تجربة تلك الحجابات الأنيقة المزركشة، في غرفتها في السكن الجامعي. بحذر شديد، قمنا بتثبت قطع القماش المثلثة الشكل فوق رأسينا وجمعنا الطرفين معاً تحت ذقنينا. ربطناهما بعد ذلك بدبابيس ونظرنا بقلق إلى انعكاس صورتينا في المرآة. وهل تعرفون أن الله، لأننا أردنا البدء بارتداء الحجاب، قد جعل وجهينا يشعّان نوراً. لم نكن نبدو مضحكتين أو مزريتين أو بسيطتين، بدونا جميلتين. تذكرت حينها السيدة المصرية التي كانت قد نظّمت كل الحفل الموسيقي، وابتسمت. أطلقت كلتانا تنهيدة ارتياح كبيرة ـ «الحمد لله» ـ وذهبنا لزيارة حنّا في الطرف الآخر من السكن الجامعي، سعيدتين للغاية.

على أي حال، لم تجد كل الأخوات نزهتها الأولى بالحجاب إيجابية مثلنا. أخبرتني سارة عن محاولتها الأولى لارتداء الحجاب: «كنت في وسط لندن وشعرت بالخجل الشديد. كنت قد لففت وشاحي، وفقاً لأسلوب جاكي، بإحكام حول وجهي وعنقي واخترت ملابس تغطي مفاتني. انتبهت تماماً إلى عدم وجود أحد ينظر إلي، وأن حضوري من نوع مختلف، مع ذلك الوشاح الصغير فقط. من بعيد، رأيت فتاة كانت تعرفني في المدرسة

ومعتادة على طلّتي البهية وصورتي الجميلة، حاولت بالفعل تفاديها قدر المستطاع، حتى إنني عبرت الشارع!».

كنت محظوظة لأنني لم أكن وحيدة أواجه هذا المظهر الجديد الغريب من تلقاء نفسي. كان لدي أخوات حولي يشجعنني ويشدُدن من عضدي، ولم يمض وقت طويل قبل أن أحصل على تشكيلة واسعة من الحجابات، المصنوعة من أنواع مختلفة من القماش. كنت أنتقي منها ما يناسب ملابسي، وأصبحت إلى حدٍ بعيد جزءاً مني.

التغيير الخارجي، التغيير الداخلي

لم تبدأ إحدانا تستر نفسها دون أن تختبر بعض التغييرات في داخلها والطريقة التي تتواصل بها مع أولئك المحيطين بها.

التأثير الأول الذي تركه علينا الحجاب، وشاح الرأس، كان تشجيع الاحتشام في اللباس والتعامل. بعد حياة قضيناها بعرض ملابسنا وأجسادنا، شعرنا فجأة بالخجل من عرض أنفسنا علناً. كان الحجاب يذكّرنا بمعايير السلوك المتوقعة منا بوصفنا مسلمين، وبشكل أكثر تحديداً، بصفتنا نساء مسلمات. أصبحنا أكثر اهتماماً بالحفاظ على الآداب الإسلامية، ألا نكون غير مهذبات أو أن نكذب، وأن نكون لطيفات وكريمات. عندما يتعلق الأمر بالجنس الآخر، لم نكن نشعر بالارتياح في تبادل الأحاديث الشخصية أو المعتادة، وجعل الحجاب المغازلة ممنوعة منعاً باتاً. برغم أننا لم نكن نرتدي سوى أوشحة الرأس في تلك المرحلة، بدأنا نشعر براحة أقل في عرض أجزاء أخرى من أجسادنا، ونتيجة لذلك، بدأ نمط لباسنا يتغير. لم يكن يبدو صائباً ارتداء الحجاب مع سروال يصل إلى أسفل الخصر.

أصبحنا في الواقع على دراية بأنه يمكن التعرف إلينا آنذاك بوصفنا مسلمات، وأننا، بتلك الصفة، ممثلات للإيمان أينما ذهبنا. لهذا كنا نسأل أنفسنا ما إذا كان ما سنقوم به أو المكان الذي سنقصده مناسباً لمسلمة؟. واكتشفنا أن الحضور في مشرب اتحاد الطلاب قد يكون واحداً من تلك الأشياء غير اللائقة.

منحنا الحجاب أيضاً شعوراً بالفخر بإسلامنا. كنا سعيدات بأن يتم التعرف إلينا بصفتنا مسلمات، وبرغم أن الآخرين ربما كانوا يعدوننا مزريات أو ساذجات، شعرنا بأننا جميلات في عيون الله.

«يتعلق الحجاب بمن أنتِ وما أنتِ عليه، برغم أنني لم أكن أراه هكذا في ذلك الوقت. لكن الآن، أريد حقاً امتلاك تلك الهوية، وأن أقول: إنني مسلمة بدلاً من الاندماج في ذلك المجتمع» كلير.

لكن قرارنا بتغطية أنفسنا لم يؤثر علينا وحدنا. لأننا كنا نبعث بمثل تلك الرسالة الواضحة إلى العالم الخارجي ـ «لا أريد أن يزعجني أحد، لا أريد أن يتقرب مني أحد جنسياً، أنا خارج الحدود بالنسبة لك» ـ لم يكن باستطاعة الرجال سوى تغيير الطريقة التي يتواصلون بها معنا. لم يعودوا بعد ذلك يلاحظون حركاتنا، يراقبون الطريقة التي نمشي بها، يقدّرون قياساتنا أو يقارنوننا بسوانا. لم تعد الطرق القديمة في النظر إلى أجساد النساء قائمة بعد ذلك؛ لأن أجسادنا لم تكن للعرض.

منح ذلك تواصلنا مع الرجال مستوى جديداً من الاحترام والمجاملة، وكانت تلك هبة نُحسد عليها على أي حال. كان واضحاً أننا لم نعد موضوعات جنسية، ينبغي معاملتنا بشكل مختلف.

«كوني امرأة مسلمة، شعرت بالحماية في حجابي، محمية من الطريقة التي ينظر بها الرجال إليكِ. شعرت بأنني أحظى بالمزيد من الاحترام بتلك الطريقة؛ لأنهم لن ينظروا إلي ويعلّقوا على حجم مؤخرتي أو حجم صدري» رابية.

الحجاب ... وما خلفه

في صيف تلك السنة، أعلنت ساندرا أنها تريد ارتداء العباءة ـ الثوب العريض الذي يتم ارتداؤه فوق ملابس المرء، التي ندعوها نحن الجلباب. برغم أن الله أمر، في القرآن، المؤمنات بارتداء ثوب خارجي فوق ملابسهن، إلا أنني كنت مصدومة ـ هل كانت تريد حقاً ارتداء ذلك الكيس كل يوم؟ أكّدت لها أنني لن أفعل ذلك. لكن برغم ذلك، ذهبت معها إلى أخت في ستراتفورد كانت تقوم بتفصيل عباءات لصديقاتنا. كانت أختاً لطيفة جداً من برادفورد، من أبوين باكستاني وإنكليزية. وصفت سابقاً كيف كنا نخاف من العباءات المبطّنة الكتفين ذهبية الأزرار. حسناً، كانت عباءاتها بعيدة تماماً عن تلك.

كانت العباءات مصنوعة غالباً من قماش ممتاز لكن رقيق قليلاً، وكانت تبدو مثل فساتين واسعة فضفاضة، وفيها درزة تحت الصدر وأخرى مستقيمة من الأمام. عندما ارتدت ساندرا عباءتها لتجربتها، عرفت فوراً أنني أريد واحدة. وبالفعل، اعتدت قضاء عدّة ساعات سعيدة في محال الأقمشة في شارع غريين، أنتقي القماش لعباءة جديدة وحجاب يناسبها. اتسعت مجموعتي لتضم ألواناً مختلفة بني، أسود، أزرق فاتح، كريم. في

ذلك الوقت، كنا وصلنا إلى مرحلة ارتداء العباءات مع حجابات أكبر، تغطي صدورنا على شكل قطعة أنيقة من القماش، المثبتة بدبابيس على الكتفين وتنساب إلى الخلف على شكل مثلث (انظر الشكل 1). لم يمض وقت طويل على قيامنا بذلك حتى بدأت حنّا ارتداء العباءة أيضاً، وكنا جميعنا مثل «الفرسان الثلاثة»، نذهب إلى كل مكان معاً، ونتبادل النصائح حول الأمكنة التي نجد فيها أفضل الأقمشة وكيفية صنع حاشية لها.

آنذاك، كان ارتداء العباءة مختلفاً عن عقد وشاح ببساطة. بالنسبة للكثيرات، العباءة امتداد منطقي لنمو المعرفة بالإسلام وزيادة في الإيمان. لكن حالما تقرّرين تغطية ملابسكِ، يبدو أنه لا مجال للعودة عن ذلك، لقد عبرت نقطة اللا عودة. وفي عيون أشخاص آخرين، تصبحين مختلفة أيضاً، أنتِ في مستوى مختلف. لا يشعر أولئك الشباب، الذين يتكلمون معك بعد وضعكِ الحجاب، بالراحة في أثناء الدردشة معك. تحافظ النساء غير المسلمات، أيضاً، على مسافة معينة منك. في أذهانهن، تبدين مثل راهبة وبعيدة عنهن كثيراً.

«عندما بدأت ارتداء العباءة، شرعت في رؤية جدار من عدم الفهم بيننا والنساء غير المسلمات: نحن غير معروفات لهن، ولسنا في المستوى نفسه معهن ... لا يعرفن سبب سترنا لأنفسنا، وما إذا كنا نفعل ذلك من أجل أنفسنا، أم أن شريكنا دفعنا للقيام بذلك ... بالنسبة لهن، كان ذلك يدل ربما على انعدام الثقة بالنفس، أو الخجل» سارة.

ليس أننا لاحظنا، لقد كنا مشغولات كثيراً في استكشاف هويتنا الإسلامية وبنائها حتى نقلق بشأن ما يفكّر به الآخرون بملابسنا. أعتقد

أن العبـاءة تؤكد أيضـاً لأولئك الذيـن كانوا يعرفونني قبل الإسـلام أنني جادة، وأن تلك ليست مجرد مرحلة أمرّ بها وأنني لن أشاهدهم في جلسة آر-آند-ب في اتحاد الطلاب!

ثم تعرّفت على نصـف ـ الجلباب (انظر الشكل 1)، وهو شكل الغطاء الـذي جلبتـه إلى السـواحل الغربيـة النسـاء الصـوماليات اللواتي جئن بحثـاً عن الملجـأ من الحرب الأهليـة في بلادهن. كنت أراهـن كل يوم في العمل، يندفعن عبر مدخل الكلية بأنصـاف ـ الجلابيب الكبيرة الزرقاء، الخضـراء، الزهرية والصـفراء بلون الخل التي تؤطر وجوههن. وفي أحد الأيام، عرضت إحداهن أن تصنع واحداً لي. عندما جلبته معها إلى الكلية بعد عـدّة أيام لاحقة، ارتديته فوق المنديل الكبير الملوّن الذي كنت أضـعه غطاءً لرأسـي ودرت حول نفسـي، ارتفع حولي مثل سـحابة قبل أن يهبط مجدداً على شـكل طيّات بنفسـجية ووقعت في حبه. كان واسعاً، فضفاضاً وأجـرّه خلفي عندما أمشـي كان ينزلق بخفّة من فـوق كتفيّ ويتعذّر تمييز شـكلي منه. أتذكّر أنني فكّرت: «لقد أحببت هـذا أكثر ... هذا هو الرداء الصـحيح». وهكـذا، بعـد ذلـك، أخـذت أرتدي نصـف ـ الجلبـاب كلما اسـتطعت. كنت أنا وزميلتي السـودانية في السكن، حياة، متفقتين على أن طريقة الستر تلك كانت أكثر اكتمالاً.

لهذا تخيّلن رعبي عندما عرضـت علي حياة الجلباب ـ الكامل (انظر الشـكل 1) الذي كانت قد صنعته. كنت مصـدومة ومندهشة ـ كان كبيراً جـداً، أسـود داكناً وشـديد التطرف! لحسـن الحظ، كانت حيـاة من نوع الأشخاص التي تعرف ما تريد ولم تدع رد فعلي الجاهل يمنعها عن ارتداء الجلبـاب ـ الكامـل. عندها، قرّرت أن لا أحد سـيراني ميتـة في إحداها.

كلمات أخيرة شهيرة.

بالطبـع، الله يعلم وأنا لا أعلم. يعلم أنني كنت سـألتقي أختاً تدعى أم تسـنيم، التي كانت ترتدي بنفسـها جلباباً ونقاباً، يغطّي وجهها. يعلم أننا كنا سننسجم جيداً، وقضى بأنني سأمكث عطلة نهاية الأسبوع في منزلها، وذلك في عيد المصارف الواقع في الأول من نيسان. كنا نستعد للذهاب إلى صـلاة الجمعة في منتصـف النهار عندما سـألتني حول ارتداء الجلباب. أكّـدت لها أنني لن أفعل شـيئاً مماثلاً أبداً. اقترحـت أن أجرّب ارتداءه. فعلت ذلك. نظرت في المرآة الصغيرة بجانب مشجب المعاطف. نظرت إلى طيّات القماش التي سـترت كلا جانبي وجهي، وصولاً إلى الأرض، وشعرت بالهواء يتحرك في المسـاحة بين جسدي والقماش. واستدرت إليها، وجهي مشرق دهشة وسعادة، وقلت: «اصنعي لي واحداً أيضاً!». ومع تلك العبارة، سقط نذر آخر صريعاً.

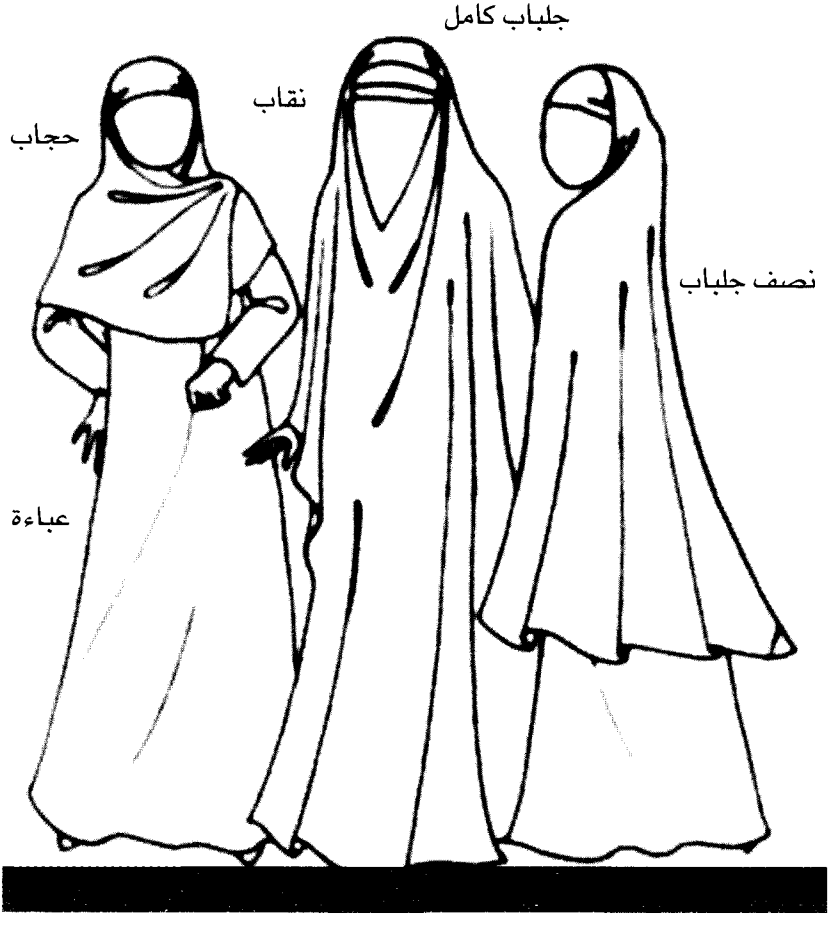
جلباب كامل
نقاب
حجاب
نصف جلباب
عباءة

علـى أي حال، لم يكن الجميع قـد كرهوا الجلباب منذ اللحظة الأولى. أخبرتني سـارة كيف بدا بالنسـبة لها رمزاً للإيمان القـوي، وقوة إرادتها أيضـاً: «عندما بدأت أشـاهد الأخوات في الجلباب، أحببته! أتذكر عندما كنـا نأخذ دروسـاً في المسـجد والأخوات يأتين من كل أنحـاء لندن في تلك الجلابيـب والنقابات الكبـيرة، بدأت أتمنّـى أن أغطي نفسـي بالطريقة نفسـها. فكّـرت: «يا للروعـة، ينبغي أن تكـوني قوية جداً حتى تمشـي في الجوار هكذا!»».

علـى أي حـال، لم أواجه أي مشـكلات إطلاقاً مع فكـرة تغطية وجهي بالنقـاب، وهـو غطاء الوجه الذي يُدعى بشـكل دائم تقريبـاً «الخمار» في الغرب. ينبغي أن أعترف بأنني أكره تلك الكلمة، ويعود السـبب في الغالب إلى مـا ترتبط به غالباً. توحي عناويـن آلاف الكتب التي تتراوح من خلف الخمـار، وراء الخمـار وتحـت الخمـار إلى رفـع الخمار، تمزيـق الخمار والغضـب ضد الخمار بإحساس المستشـرق بالغرابة والإثارة البعيد تماماً عن صـورتنا الخاصـة عن النقاب. علاوة على ذلك، لم أسـمع أبداً امرأة مسـلمة أعرفها تسـتعمل كلمة «خمار» مطلقاً من قبل. لهذا، سأشـير إلى «الخمار» بكلمة نقاب، حسناً!

حتـى في تلـك الأيام الباكـرة عندما كنا نضـع الحجاب بالـكاد، كنت أحيانـاً ألفّ القماش حول وجهي عندمـا كنا نذهب إلى محال بيع المقالي. كانت صـديقاتي يقلن: «أنتِ مميزة جداً!». لم يكن مضـى وقت طويل على ارتدائي العباءة والحجاب الكبير حتى بدأت أفكّر في تغطية وجهي مجدداً. بدأت ألفّ حجابي حول القسم السفلي من وجهي وأثبّته بدبوس هناك، في طريق عودتي إلى المنزل من العمل. اسـتمتعت بشعور الغموض الذي منحه

لي. أحببت حقيقة أن الناس لا يستطيعون رؤية وجهي، وأنني كنت غامضة بالنسبة لهم. كنت قد بدأت أشعر بعدم الراحة مع حقيقة أن أي شخص، أي رجل، يستطيع رؤية وجهي، شعرت أنه برغم أن لا حق لهم في ذلك، كانوا ما يزالون يستطيعون إلقاء نظرة فضولية كلما أرادوا ذلك.

«كان النقاب رائعاً، تشعرين أنك محمية من العالم الخارجي. كان شيئاً ذهنياً. تشعرين كما لو أن هناك غطاء، وأن الله يحميك؛ لأنكِ تفعلين ما ينبغي لك فعله وأنه سعيد بك» مي.

أعتقد أنه بحلول ذلك الوقت أدركت أن ارتداء النقاب كان أقل ما يمكنني فعله شكراً لله الذي منحني الكثير. كان ذلك بعد ظهيرة أحد الأيام التي أتذكّرها كأنها بالأمس: ضجيج الشوارع المزدحمة في وايتشابل، فكرة زواجي الجديد وزوجي الرائع، كل السنوات التي حماني بها الله من كل خطر، الحياة الطيبة التي منحني إياها، نعمة الهداية، الصديقات الطيبات، السكينة والحب آنذاك، كانت كل تلك الأشياء تجول في خاطري. لم يكن النقاب شيئاً أكرهه، في الواقع، أحببته كثيراً، ولم يكن ارتداؤه صعباً بالنسبة لي، كنت أعيش في الجزء الشرقي من لندن، بالمحصلة، وكان زوجي يدعمني.

كان ارتداء النقاب، اختيار التغطية بتلك الطريقة، يبدو أقل ما يمكنني فعله شكراً للمولى، وإظهاراً لامتناني واعترافاً بخضوعي له. لم يكن لدي وقت أضيّعه على مخاوف في غير محلها، لقد حظيت بتلك الفرصة لأفعل شيئاً أفضل، وقرّرت الاستفادة منها. وتلاشت، في تلك اللحظة، آراء الأشخاص الآخرين، وتعليقاتهم ووجهات نظرهم في الخلفية؛ وكانت عيناي ترجوان رضا الله.

وعندها، في عطلة المصارف نفسها التي حاولت فيها ارتداء الجلباب أول مرة، حضرت صلاة الجمعة في مسجد كانت فيه أغلبية النساء يرتدين الجلابيب والنقابات. في مرحلة ما، خلال الخطبة، نظرت حولي واندهشت من جمال الأخوات في الأنحاء. في تلك اللحظة، بدا لي طبيعياً جداً أن نرغب بتغطية ذلك الجمال، لحمايته، وإبقائه خاصاً. يشعر بعض الأشخاص بالرعب عندما يشاهدون نساء جميلات يغطين أنفسهن، لكن شعوري لم يكن مشابهاً. بدلاً من ذلك، شعرت بالفخر بأن أغطي نفسي مثلهن.

لكني كنت بحاجة إلى نقاب يناسبني، ويتوافق مع نمط حياتي. لهذا، حالما استطعت، كلّفت بنتو، وهي أخت غينية أصبحت إحدى صديقاتي المقرّبات، بأن تصنع لي نقاباً يشبه نقابها أنيقاً ومرتّباً، من طبقة واحدة، ومصنوعاً من قطن خفيف جداً. وهكذا بدأ الأمر. لأن النقاب المصنوع يدوياً كان يخفيني عن الأنظار، شعرت بالراحة عند ارتدائه مع أوشحتي الكبيرة والعباءة، ومع جلابيبي لاحقاً. مجدداً، حظيت بالدعم والمؤازرة من أرباب عملي في الكلية، لم أواجه مشكلة في ارتداء النقاب في العمل. خشيت من التفكير بما ستعتقده صلة وصلي مع مكتب التوظيف عندما تأتي لتفقدي في العمل. كانوا قد وصفوني في سجلاتهم بوصفي شابة أنيقة الملابس تضع وشاح رأس أبيض أنيقاً، فقط ليجدوا امرأة في نصف ـ جلباب شفاف ونقاب يجثم على أعلى رأسها، مشغولة بالرد على هواتف المكتب. لكن، حتى لا أبخسها حقها، إذا كانت قد أُصيبت بالدهشة، فإنها لم تظهر ذلك.

كان الطلاب فضوليين بلطف، والرجال المسلمون يغضّون أبصارهم ويخجلون عندما يتحدثون إلي، وأثار قراري إعجاب النساء المسلمات. سألني أحد المحاضرين، وهو رجل إنكليزي نحيل كان يأتي إلى المكان من

وقت إلى آخر: «إذاً، لماذا تحتجبين في البُردة (نظام الحجاب الهندي، ولا تظهر فيه النساء أمام الرجال) الآن؟».

أعجبني كثيراً تعبيره، لم أكن لأعمل في مثل تلك البيئة المزدحمة في حال كنت احتجبت في بُردة!

قلت له: «لا أعرف حتى معنى ذلك!»، وأوضحت أنني أردت تغطية نفسي أكثر، وأنني شعرت بأن وجهي حيّز خاص بي، حيّز لا أرغب بأن أشارك به أحداً. فكّر في إجابتي، وفرك ذقنه وهزّ كتفيه غير مُبَالٍ وتابع السير إلى صفه.

هكذا، بدأت ارتداء النقاب. كان زوجي مبتهجاً وأم تسنيم وصديقات أخريات مسرورات. لكن، دون شك، لم يوافق الجميع على الأمر. اعتقد بعضهم أنها كانت خطوة غير ضرورية، وأنني كنت أتخطى الحدود. في الواقع، لم يعجب الأمر بشكل خاص صديقتيّ حنّا وساندرا. لكن في المجتمع الصغير في الجزء الشرقي من لندن، شعرت بالراحة والثقة، لطالما كانت تتم مشاهدة النساء البنغاليات في الجوار مرتديات النقاب، لهذا لم أبرز مثل إبهام متقرّح بين الأخريات. والأكثر أهمية أنني شعرت بأنني أقوم بالعمل الصائب تجاه مولاي.

تغطية أكثر وكشف أقل

كيف يمكنني شرح ذلك الدافع لتغطية نفسي؟ هناك الكثير من المشاعر التي انتابتني في أثناء «الإقدام على تلك الخطوة»: الرغبة في فعل كل ما من شأنه إرضاء الله كان بالتأكيد عاملاً رئيساً. كان القرار بالإقدام على

تلك الخطوة نتيجة أيضاً لإيمان أكبر، إيمان أعمق والتزام روحي أقوى. بالنسبة لبعضهم كان الأمر كما لو أن للحجاب تأثير الدومينو، وبالفعل، تصبحين أكثر اهتماماً بنفسك حالما تبدئين التغطية. وعندما تشاهدين إحداهن تغطي نفسها أكثر منكِ، تصبحين قلقة لأنك أكثر كشفاً. تختبرين إحساساً متزايداً بجسدك والرغبة بجعل المزيد من جسدك خاصاً، وتغطيته، لحمايته. فجأة، تشعرين بالأسى على ذراعيك وساقيك، وأنها مكشوفة للغاية؛ وتتمنين أن يكون جسدك وملابسك محمية بالطيّات الحريرية للعباءة، التي تخفي تحركاتك.

تستند الرغبة في ارتداء الحجاب والنقاب إلى الغريزة نفسها بتغطية أكثر وكشف أقل. وإذا شعرت بالأسى على ذراعيك وساقيك قبل ارتداء العباءة، تشعرين بقلق شديد بشأن كشف وجهك الذي ربما يكون أجمل ما فيك. معرفة أن الصحابيات وزوجات النبي ﷺ، أفضل نساء العالمين، اعتدن تغطية وجوههن يشكل حافزاً أيضاً. عند تلك المرحلة، تختفي العقبات والقيود المتنوعة التي ترافق ارتداء النقاب؛ لأنه عندما يكون إيمانك كبيراً، تصبحين منيعة على الصعاب، ولا تفكرين إلا في سعادة المولى ومكافأته.

الحجاب، يحرر أم يضطهد؟

لكن كيف نرغب بشيء يعده الكثيرون الرمز الأخير للاضطهاد؟ كيف يمكن للحجاب أن يحرر؟

بوصفي امرأة في هذا المجتمع، وفي معظم المجتمعات الأخرى، تنشأ الواحدة وهي تتوقع أشياء معينة: أن يتم الحكم عليها من مظهرها، أن

تحدد اتجاهات الموضة أسلوب جسد المرأة المثالي وشكله، أن تكون موضع اهتمام من الرجال، سواء كانت تحب ذلك أم لا، من ضمن أشياء أخرى. هناك المرأة التي تستمتع بكل هذه الأشياء، وتعدها جزءاً أساسياً من أنوثتها، العديدات منا يشعرن بهذه الطريقة أيضاً. لكن يحين وقت يبدأ فيه الجمال بالذبول، تصبح العناية الدائمة بالأناقة والهندام عملاً مملاً، وتبدو الرغبة بامتلاك آخر ما أبدعه مانولو بلانيكس أو فستان من غوست فارغة ولا طائل منها، ويفقد التحول الأكيد بعيداً عن القدّ الميّاس والأناقة المفرطة حماسته ويظهر الأمر على حقيقته: ضحل ولا معنى له. وتبدئين بالتساؤل: ألست أكثر من مجموع أعضائي؟ ماذا ستكون العواقب إذا خرجت من هذا السباق؟ ماذا سيحدث عندما يبدأ جسدي بالتغير نتيجة التقدم بالعمر، المرض أو الحمل؟ إنها هذه المخاوف وغيرها أخرى، مع الحجاب وكل شيء آخر، التي تحرّر تغطية المرأة المسلمة منها.

طيور في أقفاص من ذهب

في مجتمعنا، كما في كثير غيره، يتم الحكم على النساء من مظهرهن بطريقة لا تطول الرجال. لكن لا يمكن الحكم على نساء يغطين أنفسهن من مظهرهن؛ لأنه لا يمكن رؤية شيء شخصي منهن. تكون في الواقع قد أزالت مظهرها من المعادلة. لا تشعر بالحاجة في الارتقاء إلى مستوى توقعات المجتمع المتغيرة عن أجساد النساء. لا تكون ضحية لضغوط مختلفة لتتوافق مع آخر المظاهر أو تقدّم صورة «جميلة». لهذا مهما كان الذي يتواصل معها ينبغي أن يتواصل مع ما تمثّله، بما تقوله، أوتفعله أو تفكر به. لهذا السبب قالت غانية لي: «إذا ذهبت إلى عمل، ولم يستطيعوا الحكم

عليكِ سوى من خلال قطعة الورق أمامهم [سيرتكِ الذاتية] وما تقولينه، فستعرفين أن قرارهم لن يكون له علاقة بمظهرك. تلك هي الحرية!».

«تمتد حقيقتي إلى ما خلف صورتي، ولا أريد أن يحكم الآخرون عليّ من مظهري بعد الآن» سارة.

سوق اللحوم

من الطبيعي بالنسبة للرجال النظر إلى النساء: نحن جميلات، بالمحصلة! وتجد الكثير من النساء ذلك لطيفاً ومسلياً أحياناً. لكن دون شك، هناك أوقات أخرى يصبح فيها الأمر غير ضروري ومزعجاً. نظرات تحديق، صفير إعجاب، صفير استهجان، تعليقات، صواريخ تحمل أرقام هواتف، كلها مقدّمات، هناك خيط رفيع بين الإعجاب والتحرش الجنسي.

«أشاهد أحياناً شاباً يتجاوز فتاة ويستدير عائداً وينظر إلى ساقيها أو صدرها وأفكّر، سأكره أن يحدث ذلك لي. لا يشدّني ذلك، وهذا ليس إعجاباً، ولا أفهم كيف يجعل ذلك المرأة سعيدة. بالنسبة لي، سيكون أمراً رائعاً أن يمر بي أخ مسلم ويغض بصره. بالنسبة لي، ذلك يدل على الاحترام أكثر من شخص يصفر عندما يشاهد ساقيّ» رابية.

لا يمكن إقامة هذا النوع من التواصل مع المرأة التي تغطي نفسها. من الواضح أنها ليست مهتمة بمقدمات الرجال تلك، ولا بأن يعدوها جذّابة للغاية أو مثيرة، إنها تسيطر بشكل مطلق على جسدها وعلى الطريقة التي ينظر بها الآخرون إليها.

جمال الجسد

الضغط على النساء والفتيات حتى يبدون بطريقة معينة كبيرات جداً يقود إلى كل أنواع المشكلات والأزمات. تُعدّ اضطرابات الأكل مثل الإفراط في تناول الطعام، والحميات القاسية، والشراهة وفقدان الشهية من تأثيرات هذا الضغط. يمكن أن ينتج عن شعورنا بالاستياء من أجسادنا انخفاض الثقة بالنفس وزيادة القلق من شكل الجسد.

نظراً إلى عدم الحكم على المرأة المسلمة من مظهرها الخارجي، فإنها لا تقدم نفسها من خلاله. نتيجة لذلك، لا يرتبط شعورها بالذات بمظهرها. يجعلها هذا حرة من القلق على مظهرها الخارجي وكل ما يتعلق به.

«في البداية، شعرت كما لو أنني وجدت مساحة خاصة بي ودرجة معينة من الخصوصية. أعني بذلك إخفاء الأعضاء الحسّاسة في جسدي، لأنني لا أريد أن يستغلها أحد، أريدها أن تكون لي وحدي وأن أمنحها إلى من أريد منحها له» هاجر.

الجمال الداخلي

في مجتمعنا، يتم تشجيع النساء ببراعة على إيلاء الاهتمام بأشياء سطحية ـ المظاهر، الشكل، الجاذبية الجسدية ـ والغرور والنرجسية اللتين ترافقان ذلك. برغم أن الكثير من الناس مهووسون بالمظاهر الخارجية، إلا أن الإسلام علّم النساء اللواتي يغطين أنفسهن رعاية جمال لا يرتبط بالجسد فقط، يتعلق بشخصيتها، عاداتها وأخلاقها. لهذا، تتحرر من إضاعة وقتها وطاقتها في الحفاظ على جمال خارجي، لأنها تعرف أن ما بقلبها هو الذي يجعلها جميلة حقاً.

ومتى لا يكون مريحاً؟

ربما يتساءل القارئ ما إذا كان ارتداء الحجاب والنقاب مريحاً دائماً، وما إذا كانت لا توجد أي مصاعب أبداً في التغطية، من أعلى الرأس إلى أخمص القدم، كل يوم، بقماش أسود.

«إنه خانق عندما يكون الجو حاراً فعلاً ـ ولا أحد يستطيع القول: إنه مريح في تلك اللحظة. تفكّرين: هل تعرفين شيئاً؟ أريد انتزاع كل شيء والجلوس في الخارج هناك والشمس تلمس جسدي» هاجر.

أحد أكثر التعليقات شيوعاً التي تسمعها المرأة هي: «ألا تشعرين بالحرّ في ذلك الشيء؟»، وبالتأكيد أحد أقسى الأشياء بشأن ارتداء حجاب كامل هو التعب الجسدي الذي ينتج عن الحرارة أساساً. أتذكر أنني قرأت بشأن أخت ترتدي الحجاب والتي تم سؤالها عما إذا كانت لا تشعر بالحرارة لأنها تضعه. كان جوابها حاداً: «حرارة نار جهنم أكبر».

حادٌ، وقاسٍ ربما، لكنه مناسب تماماً. أتمنى فقط لو أن لدي الشجاعة لأقول تلك الإجابة كلما سألني أحدهم ذلك السؤال.

وبرغم أن الحرارة في المملكة العربية السعودية وبلاد أخرى، حيث تغطي النساء أنفسهن تقليدياً أعلى بكثير مما تصل إليه الحرارة في إنكلترا، إلا أن الوضع برغم ذلك يصبح حاراً أحياناً تحت تلك الطبقات من القماش الأسود. لطالما كنت قد تعاملت مع ذلك الإزعاج بالتأكد من ارتداء ملابس خفيفة تحته، مصنوعة من أقمشة طبيعية تسمح بمرور الهواء، مع وشاح صغير خفيف. قماش الجلباب نفسه مهم أيضاً، الجلابيب من الخليج

مصـنوعة من أقمشـة خفيفة جـداً، خفيفة للغايـة حتى أنكِ لا تشـعرين أحياناً بوجود شيء فوق ملابسك على الإطلاق.

«وجدت من الصـعب ارتداءه، والتحرك به ـ الصـعود إلى السيارة والنزول منها كان شاقاً ـ ينبغي أن تعتادي عليه وتعتادي على وجود قطعة إضافية من القماش هنا وهناك» مي.

شـيء آخر يجعل ارتداء حجاب كامل صـعباً هو رد الفعل الذي تجابهه المرأة من غير المسـلمين، عندما بدأت أرتدي ملابس مثل أي مسلمة وليس مثل «أخت سـوداء عاقلة»، وجدت نفسي فجأة في موقف ينظر به الآخرون لي بطريقة مختلفة ـ آراء أخرى عن الإسـلام، والمسـلمين وعني بوصـفي امرأة مسـلمة. كان غريباً بالنسبة لي أن أسمع الآخرين يشيرون إلي بتلك العبارة ـ «امرأة مسـلمة»؛ لأنني كنت أعرف كل الصـور والأفكار المسـبقة التي تترافق مع ذلك الوصـف. وكنت أعرف أنني لا أناسـب تلك الصورة، ولم يكن لـدي نية بأن أكون كذلك على الإطلاق. يمكن للحجاب، الجلباب والنقاب خاصـة أن تثير ردود أفعال قاسـية للغاية من العامة. يبدو الأمر كما لو أنه حالما تضعين النقاب، تتوقفين عن حمل هوية إنسانية. أعرف أن النقاب يشـكّل صـدمة لنظام معظم الناس في المجتمعات غير الإسلامية، نحن معتادون على معرفة الكثير من المعلومات الشخصية بشأن الناس من حولنا، ونسـتطيع تحديد عرقهم، وعمرهم، وبنية أجسادهم ومفاتنهم. لا يكشـف النقاب أيـاً من هذه المعلومـات. ما الذي يراه غير المسـلم عندما يشـاهدنا أو تشـاهدنا في الشارع؟ بقيةٌ من عصـر غابر، رمز متخلف عن الاضطهاد في العالم الحر، تعصبٌ ديني، إرهابية أو معاونة إرهابي دخيلة، مهاجرة، متطفلة!

كان ذلك الموقف خاصة مزعجاً لهاجر، سيما وأنها كانت شخصاً مهماً في صناعة التسجيلات قبل عودتها إلى الإسلام: «من قبل، كنت شخصاً يريدون معرفته، شخصاً يحتاجون إلى معرفته. كان الأمر مثل: «أستطيع الدخول إلى ذلك المكان إذا كنت أعرفها، أستطيع إبرام صفقة التسجيل تلك إذا كنت أعرفها، أستطيع الانضمام إلى تلك المجموعة إذا كنت معها». وفجأة، أصبحت منبوذة: كنت مرفوضة، وتعرضت للإهانة بين ليلة وضحاها. وفكّرت: «هل إذا نزعت تلك الأشياء عني، فستعودون جرياً إليّ» ... كان ذلك مزعجاً حقاً لي».

بدا الأمر لي أنه حالما تغطّين وجهك بالنقاب، لا يعدك الآخرون شخصاً بعد ذلك، تصبحين رمزاً. أقول هذا لأن الناس، للمرة الأولى، يتكلمون عنك أو يوجهون لك الإهانة في وجهك مباشرة، وهو شيء لم يسبق أن حدث عندما كان أنفك وفمك ظاهرين. لم يعد الكثير من الناس ينظرون إليك في عينيك، يلقون بتحية ودّية أو يباشرون حديثاً عادياً معك. جزء مني يفهم السبب، من الواضح أنني مختلفة تماماً عنهم، ماذا إن أسأت فهمهم، ماذا إن لم أستطع فهمهم، ماذا سيقولون عني، ما الذي يمكن التحدث عنه؟ أعرف أيضاً أنني مررت بأوقات تفاديت بها الاتصال البصري، خوفاً من رفض الآخرين لي، وأنني أبقيت فمي مغلقاً، خوفاً من أن أبدو حمقاء. إذا سمحتن بحدوث ذلك، فقد يصبح ارتداء النقاب تجربة عزل كامل، ليس هناك المزيد من الغرباء الودودين في الشوارع. الأمر منوط بك لأن تبادري وتكسري الجليد. ويتطلب الأمر، أحياناً، شجاعة كبيرة؛ حتى تكوني على سجيتك وتقومي بما ترغبين، بغض النظر عما يتوقعه الناس حولك. من السهل السماح لردود أفعال أشخاص

آخريـن بأن تغير شخصـيتك عندمـا تكونين بينهـم، وتجعلك تتراجعين فيما كنتِ تتقدمين فيه، ويجعلك تخافين فيما كنت شـجاعة فيه، وتجعلك تتقوقعين على ما أنتِ عليه. هذا شـيء ينبغي على المرأة، في هذا المجتمع، أن تقاومه بوعي.

«حجابـي مسـتقل عن جسـدي، لا يبدو أنـه يؤثر على شخصـيتي بأي طريقة لأنني سـأفعل كل ما أرغب بـه، وأذهب إلى حيث أريد. سـأخرج مـع مجموعة من غـير المسـلمات اللواتي يرتديـن جميعاً الجينز وملابس ضيقة ولا أنزعج على الإطلاق» هاجر.

أشـعر دائماً بأن لدي، بوصـفي امرأة مسـلمة تغطي نفسها، الكثير من المواقـف التـي ينبغي مواجهتهـا، والكثير من الصـور الزائفـة التي ينبغي إزالتهـا. أعرف أن الناس يندهشـون عندما يسـمعونني أتكلـم الإنكليزية أو الفرنسـية، عندمـا أعبّر عـن رأي ما، عندمـا أتكلم بطريقـة ودّية إلى أطفالهم، وأنني أقود سـيارة كبـيرة، وأنني خريجة جامعيـة، وأنني أعمل وأحب السـفر، أنني لا أتوافق مع التصور المسبق الشائع الذي يحملونه عن النساء مثلي. أشعر دائماً بأنني أتعرض لضغط حتى لا أرتكب أي خطأ، في سـيارتي، مع أمين الصـندوق في المتجر، بتعليم ابني الانضباط؛ مخافة أن يعزو الناس ذلك إلى حقيقة أنني أغطي نفسي، وأنني من ثم عاجزة. وهذه أشـياء لطالما سـمعت الأخوات يتكلمن عنها. لكن عندما أبذل جهداً للتكلم إلى غريبـة، أحاول نقض تلك الحجة، ونتبادل الدعابات، وأترك الشـعور الذي انتابني في أثناء تلك المقابلة يغمرني، الشعور بأنني تواصلت مع كائن بشري آخر وأنني ربما منحتها شيئاً تفكر بشأنه. ربما أكون قد أحدثت ثقباً صـغيراً في جدار الإجحاف والشـك ذاك! وهكذا أسـتطيع السير مرفوعة

الرأس، وأن أتكلم بثقة وأترك الابتسامة تشع من عينيّ، أي شيء لتكوين صورة خلف ما يرونه مني، وأطالب بأن يتواصلوا معي وليس مع نقابي.

«لن أنسى مطلقاً حضوري سباق خيل مع ابني الذي يحب الخيول حقاً. كان ذلك في أفيغنون، فرنسا لكني شعرت بأننا موجودون في تكساس! كان الجميع يرتدون ملابس جلدية وقبعات رعاة بقر! قلت لعائلتي: «حسناً، جميعكم، تصرفوا على طبيعتكم!». وكان الجميع لطيفين حقاً» هاجر.

أحياناً، على أي حال، يدهشني الناس لافتقارهم للتصورات المسبقة. لن أنسى رؤيتي لطبيبة شابة عندما كسرت إصبع قدمي. سألتني كيف آذيته وقلت لها: إنني أمارس الكيغ بوكسنغ (مزيج من الكاراتيه والملاكمة) وآذيت إصبع قدمي في أثناء التدريب على زوجي. ابتسمت فحسب. ونظرت إلى المشهد من زاويتها: هذه المرأة الحيوية بالأسود، تجلس وهي تضع ساقاً على ساق على سرير المستشفى العالي، تدردش عن الكيغ بوكسينغ. بعد تمحيص الموقف في ذهني، سألتها: «هل تجدين سماع ذلك من امرأة ترتدي مثل هذه الملابس غريباً؟».

ابتسمت عن دراية وهزّت رأسها قائلة: «في هذا العمل، تتعلمين ألا تفترضي أي شيء بشأن الناس».

يكفي أن أقول: إن هناك أشياء معينة تجعل ارتداء النقاب صعباً. يثير هذا السؤال الآتي: «لماذا لا تنزعينه ببساطة؟». طرحت هذا السؤال على أخوات، وتحدّيتهن أن يكون لديهن جواب يبدو منطقياً، وأن يجبن على ذلك السؤال بشكل قاطع.

قالت لي هاجر: «لن أنزعه بسبب إيماني، لن تكون كل الأسباب التي دفعتني لارتدائه صحيحة إذا جعلتني ردود أفعال الآخرين أو حرارة الشمس أنزعه. سأشعر بأنني ضحلة التفكير. عندما تريدين الاستقامة، ينبغي أن تلتزمي بها دائماً، لا يمكنك تجزئة الأمر».

أيضاً، لم يخطر ببالي أبداً أن تحمّل صعاب ارتداء النقاب، أو أي شيء آخر يرتبط بالدين، يماثل العمل وفقاً لنظام أخلاقي في بيئة عمل غير أخلاقية. خلال سنوات الفصل العنصري، كانت هناك شركات ترفض التعامل مع جنوب أفريقية أو أي شركة لها مصالح في جنوب أفريقيا. سخر بعضهم من قرارهم، وقالوا: إنهم يخسرون الكثير من الأعمال هناك وعرضوا العديد من الحجج الزائفة الأخرى لدعم أسبابهم في التخلي عن المقاطعة. لكني واثقة أن معظم الناس الذين يمتلكون ضميراً حياً سيوافقون أنه كان من الأفضل عدم التخلي عن مفاهيم الحرية وعدم التمييز في جنوب أفريقيا من أجل مصالح الجنيه والدولار. الغريب أن لا أحد أبداً يشفق على النباتيين عندما لا يستطيعون تناول قطعة لحم متبّلة، أو أولئك الذين يعيشون على الخضار عندما لا يتناولون المثلجات، أو مستهلكي الطعام العضوي عندما يكون عليهم أن يدفعوا أكثر للحصول على طعامهم. إنهم يلقون الاحترام لثباتهم على مبادئهم. يفترض الجميع أنهم اتخذوا خياراً عقلانياً، ولهذا نراهم محط إعجاب كبير.

«أعتقد أن العقيدة والإيمان الكامنين وراء ذلك أقوى من تلك المشكلات الصغيرة التي تواجهينها. لكل شيء صعوباته، والشيء الذي يتعلق بالجلباب والنقاب أنك لا تفكرين به كل صباح ـ إنه جزء منك. إنه مثل طبيعة ثانية ـ تصبح فكرة التخلي عنه أو نزعه عنك غريبة» رابية.

لكـن برغم أن المرأة المسـلمة الملتزمة التي كانت قـد اختارت أن تلبس وتعيش بالطريقـة التي ترتـاح لها تعاني مـن درجة معينة من المضـايقة لتمسـكها بمبادئهـا، إلا أن الآخريـن لا ينظـرون إليها بالاحترام نفسـه. يفترض الجميع أنه لا يوجد منطق خلف ذلك. أحياناً، ما تقوم به صعب ـ لكنها لا تستسلم. إنها قوية ضد المعارضة، صبورة عند مواجهتها لاختبار، وتكافح باسـتمرار. لا يوجد سوى درجات فرق بينها وبين المحارب ـ أتمنى فقط أن يمنحها الناس بعض الفضل بعد أن يعرفوا ما بذهنها.

الأميرات العربيات

يضـع الناس كل أنواع الفرضـيات بشـأن السـبب الذي يدعو النسـاء المسـلمات لتغطية أنفسـهن. إما أننا صـاحبات جمال سـاحر أو «بشعات مثل جهنم». بالنسبة لأولئك الذين يفترضون أننا فاتنات جداً حتى نغطي أنفسـنا، نصبح غريبات، غامضـات وحتى مثيرات وفقاً لأكثر الفرضيات غرابة. يسـمح هؤلاء الناس لخيالهم بالانطلاق جامحاً، ويغذّيه دون شك أوهام الحريم ونسـاء الشرق المثيرات. سيصـاب هؤلاء بخيبة أمل عندما يعرفـون أن المرأة التي يعدونهـا أميرة عربية ملتفة بالنقاب قد ولدت جين سـميث من بيملكو. نحن لسـنا مثيرات، أو كائنات تثير الشـهوة جئن إلى هنا من الصـحراء على بسـاط الريح، برغم أنني أفضـل ذلك الافتراض على غيره، لأسباب واضحة! بالنسبة لأولئك الذين يفكرون، أو يتظاهرون بالتفكير، بأننا نرتدي تلك الملابس لأننا بشـعات، بدينات أو لأننا بخلاف ذلك نخجل من أجسـادنا، نحن مسـليات، والحديث معنـا ممتع، الإهانة المفضـلة لدينا هـي أننا «نينجا»! يمكـن التعبير عن هـذا الموقف الخاص

بالبُصاق، السباب أو الاعتداء الجسدي الحقيقي. أتذكر يوماً ما عندما كنت أسير مع أم تسنيم عائدتين إلى المنزل مع الأطفال في عرباتهم، قام بعض الأولاد بإلقاء بعض البيض علينا من نوافذ شقتهم. كادت إحدى البيضات تصيب وجه طفلي، وتحطمت على غطاء العربة. أصابتني صدمة كبيرة، لأنني عرفت أنه إذا أصاب هؤلاء المتوحشون هدفهم، فلن يبدو وجه ابني على ما هو عليه اليوم.

لدى كل أخت تقريباً ترتدي النقاب قصة مشابهة تسردها. على أي حال، بعد عدّة حوادث، تصبح إحدانا أقل تحسساً للإهانات والقسوة الهمجية أحياناً لبعض الجناة الذين غالباً ما يكونون، لسوء الحظ، صغاراً. مثل معظم الناس، يخافون ما يجهلونه.

بأي حال، برغم أننا قد نواجه عدوانية عندما نخطو خارج أبواب منازلنا، إلا أننا نقابل فضولاً أيضاً. لم يسبق لغالبية غير المسلمين أن التقوا أو تحدثوا مع امرأة مسلمة، خاصةً تلك التي ترتدي ملابس وتعيش بالطريقة التي نحيا بها. لهذا هناك دائماً أسئلة: ما الذي نبدو عليه فعلاً تحت ملابسنا الفضفاضة؟ هل نخلعها أبداً؟ هل نحن مثلهم تماماً؟ يتساءل معظم الناس عمّا سيجدونه إذا ألقوا نظرة «خلف النقاب»؟

تحت طبقات القماش

في كل مكان حولنا، كل يوم، عبر كل وسيلة ممكنة، تمطرنا صور نساء فاتنات يخبرننا أننا نستطيع إيجاد السعادة في فساتين أحد المصممين، حمية غذائية جديدة أو قارورة عطر؛ لأننا نستحقها! من الممرات الضيقة إلى الطرق العامة، من التلفاز إلى الإنترنيت، يتم بيع وصفات الرشاقة،

أزياء المشاهير مع تسريحات شعرهم لنا بوصفها دليلاً على الأنوثة. لهذا، في مجتمع يهتم بالمظاهر حيث تتعرض النساء والفتيات على حدٍ سواء لضغط ملاحقة آخر نزعات الجمال، أين يترك ذلك المرأة المسلمة التي تغطي نفسها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها: المرأة التي قرّرت، في الواقع، عدم الاشتراك في عرض الأزياء؟ هل تشعر النساء المسلمات اللواتي يغطين جمالهن بالقلق من الأزياء، الوزن والتقدم في العمر؟ أم هل، بسبب احتجابهن عن العيون المتطفلة، يزددن جمالاً بطرق أخرى، طرق لا تعتمد على مظهرهن؟

أحد أكثر الأفكار الشائعة بشأن الحجاب هو أنه يحول النساء إلى كائنات عديمة المشاعر، مزرية وغير جذّابة. يعتقد بعض الناس أن الحجاب مؤسسة تجرّد المرأة من أنوثتها، و«حقها» بأن تتجمّل وتظهر جمالها، ومن ثم إخفاء ضعفها وملابسها الرثّة، مثل فراشة فقدت جناحيها. عندما بدأت أغطي نفسي، لم تستطع صديقاتي غير المسلمات أن يفهمن لماذا أزعج نفسي بتجريب تسريحات جديدة، شراء أدوات تبرج أو تجديد ملابسي سألنني: «ما الفائدة؟ سوف تغطينه على أي حال».

الخروج بملابس محتشمة

إذا كان هناك من شيء تقوم به معظم النساء الجديدات على الدين، سواء اللواتي ولدن مسلمات أو عُدن إليه، فسيكون الطقس المتعلق بالتخلص من كل ملابس المرأة القديمة عند اعتناقها الدين. ليس هناك تشريع يطالب بهذا، ولا حديث يشجّع عليه؛ لكن برغم ذلك، غالباً ما تتخلص الأخوات المسلمات من ملابس حياتهن السابقة، وضمنها السراويل المغرية، الملابس

الضيقة وكل شيء آخر. ولا يتوقف الأمر عادة عند ملابس الحفلات؛ لأن كل شيء يكون مثيراً يجد طريقه إلى مركز الصدقات المحلي. الأمر مثل تعويذة تطهّر كل ذكريات ماضينا غير المسلم، أو جاهليتنا.

«أعتقد أننا نفكر بأنه حالما تبدئين الالتزام، فإن ذلك يعني أنك وصلت إلى الستين من العمر! تخلّصي من كل ملابسك، نعم، لقد فعلت ذلك مع الكثير من الأخريات» جميلة.

معالم «ملابس المسلمة حديثاً»

باعتراف الجميع، عندما نبدأ تغطية أنفسنا، يكون لذلك تأثير على الطريقة التي ترتدي بها الكثيرات منا ملابسهن تحت ذلك الغطاء. كان الأمر كما لو أننا شعرنا، بوصفنا نساء مسلمات، بأن ملابسنا ينبغي أن تكون أطول، أعرض وألوانها داكنة أكثر، وبكلمة واحدة: محافظة. أشير إلى هذه النزعة بظاهرة «ملابس المسلمة حديثاً». تتميز ملابس المسلمة حديثاً بالافتقار الكامل للتصميمات تحت أقمشتها الخارجية (حجاب، عباءة، جلباب ... إلخ)، ويأتي ذلك غالباً في تناقض صارخ مع الطريقة التي كانت تنتقي بها ملابسها قبل الإسلام. يمكن لهذا أن يتضمن ارتداء ملابس غير متناسقة، فضفاضة أو ملابس رثّة لا تتناسب مع بعضها كما ينبغي.

سيبدو أن معالم «ملابس المسلمة حديثاً» غريبة الطراز، وربما يكون ذلك أصل المشكلة. سابقاً، ربما كنا نختار ملابسنا وفقاً لدرجة الإغراء الجنسي الذي تقدمه، لكن هذا هو الإسلام الآن، والمسلمات مطالبات بالحشمة بشكل عام، وحتى بين نساء أخريات، لا ينبغي ارتداء ملابس

فاضحة أو تنانير قصيرة! لهذا أحياناً، تصبح الملابس التي كنا نرتديها قبل أن نصبح مسلمات غير مناسبة حقاً لارتدائها في تجمع للأخوات.

لكن، آه كم ندمنا على القرار المتسرع بالتخلص منها جميعها عندما تزوجنا! كم كنا سنقدّر ذلك الفستان المثير الذي يكشف الظهر الآن، ضمن عالم الحلال الشرعي!

«لقد رميت حقاً الأشياء التي كنت أعتقد أنها غير مناسبة أبداً، لكني ندمت بعدها؛ لأنني ما زلت أستطيع ارتداء ذلك النوع من الملابس أمام زوجي» صادقة.

ليس هناك فقط قضية نوع الملابس التي كنا نرتديها؛ وإنما غالباً ما يكون هناك سوء فهم عمّا ينبغي للمرأة المسلمة أن تبدو عليه. هناك هذا الشعور بأنك مسلمة الآن، وينبغي عليك، كما قالت أم صفوان: أن «تهملي نفسك وتنسي شأن الحياة». يتضمن هذا عدم ارتداء ملابس جميلة، تسريح شعرك، وضع التبرج وأي شيء آخر يمكن وصفه «زينة دنيوية».

«هناك بعض الأخوات اللواتي لا يهتممن بمظهرهن، ولا يهتممن بما يرتدين ... لا، هذا ليس شيئاً إسلامياً، لكني أعتقد، مع الكثير من الأخوات، أنهن عندما يبدأن ارتداء الحجاب، فإنهن يصبحن كسولات» غانية.

تلك هي بالتأكيد إحدى الصور التي يحملها الغرباء عنا. لكن هذا الموقف، مجدداً، يعدّ عقدة للغربية التي تعتنق الإسلام. في أغلبية المجتمعات والبلاد الإسلامية، من باكستان إلى الصومال، من ماليزيا إلى المملكة العربية السعودية، أتقنت النساء فن الظهور بمظهر جيد، وإن كان

تحت غطائهن الإسلامي: يرتدين الساري المطرّز، الملابس الباكستانية المزيّنة بخطوط مذهبة، وهي السروال والقميص، اللنغا المرصعة بالجواهر مع تنانيرهن الكاملة؛ البوبو المصنوع يدوياً، وهو قفطان غرب أفريقية، الدرعة والغوغورات الشفافين في الصومال، وهما قطعتان مزخرفتان ترتديهما النساء تحت التنانير. يقمن بتزيين أيديهن وأرجلهن بمسحوق الحنّة، ثم يصبغن عيونهن بالكحل، ويعطّرن ملابسهن بالبخور، ويجمّلن أطرافهن بالذهب والفضة. لكن نحن الغربيات المسكينات اللواتي اعتنقن الإسلام لا نعرف شيئاً عن تلك الفنون الغامضة، كل ما نعرفه أننا أصبحنا متدينات، وأن النساء المتدينات لا يهدرن وقتهن في مثل تلك التوافه من الأمور.

أخبرتني هاجر حول الفرق بين الأخوات الغربيات ومثيلاتهن في المملكة العربية السعودية: «نحن نرتدي ملابس رثّة هنا، مقارنة بهن، وينظرن إلينا بعين متعالية لأجل ذلك. يعتقدن أننا عجائز».

كان هذا الموقف الجديد من الملابس والمظهر الحسن شيئاً لم أستطع فهمه عندما انتقلت إلى مجتمع جديد ممن اعتنقن الإسلام، بعد أن تزوجت. قبل ذلك، في حفلة الحنّة الخاصة بي، كنت قد دعوت صديقاتي من الجامعة، اللواتي كانت معظمهن مسلمات بالولادة، وبذلن جميعاً جهوداً كبيرة وكن يبدون رائعات! كن جميعاً يضعن الحلي، ويرتدين ملابس لامعة من الحرير والساتان (الأطلس). كانت القاعة الصغيرة التي قامت ساندرا، وحنّا وحياة بتزيينها، نابضة بألوان الحلي والضحكات، والتنانير التي تتحرك دائرياً مع الدف، الطبلة اليدوية التي نضرب عليها عندما نغني. قضينا وقتاً ممتعاً، نحن الفتيات فقط، ما شاء الله، وكانت واحدة من أفضل الأمسيات في حياتي.

ننتقل بسرعة إلى وليمتي، وهي احتفال الغرض منه تقديم المتزوجين حديثاً إلى المجتمع. بعد أن اتخذت موقعي في مجتمعي الجديد من الأخوات اللواتي اعتنقن الإسلام، أُصبت بالدهشة: لم تنزع الكثير من تلك الأخوات جلابيبهن، دعكِ عن ارتداء أكثر الملابس أناقة! لم يكن هناك حلي، تبرّج، جهد ما لجعل المناسبة متميزة ومختلفة عن أي تجمّع إسلامي. الوحيدات اللواتي كن يرتدين ملابس أنيقة هن أم تسنيم (كنا نحتفل بوليمتينا معاً)، وصديقاتي من الجامعة، وعائلتي وأنا! كان الأمر مخيباً تماماً للآمال في الواقع، ولم أفهمه. أخبرتني رابية أنها كانت مندهشة مثلي تماماً: «وفقاً للثقافة الباكستانية، من المهم الظهور بأجمل حلّة في حفلات الزفاف والمناسبات الأخرى، وأجد الأمر غريباً عندما أذهب إلى حفلات الزفاف وأكون الوحيدة التي ترتدي ملابس أنيقة».

أخبرتني غانية حول تجاربها مع معالم «ملابس المسلمة حديثاً»: «تنزعين حجابك وينظر الجميع إليك كما لو أنك جوان كولينز، ويبدو كأنك تقولين: «هذه أنا بعد أن نزعت حجابي!». كنت أذهب إلى حفلات زفاف أبدو فيها أكثر أناقة من العروس نفسها!».

على أي حال، هناك سبب محتمل آخر لظاهرة ملابس المسلمة حديثاً: الحقيقة أنه يوجد في الأعماق صوت خافت يقول: «لماذا تزعجين نفسك؟ لا يستطيع أحد رؤيتك على أي حال!». بالمحصلة، هذه لم تعد جاهلية (العصر الذي سبق الإسلام) حيث ينبغي انتقاء كل قطعة قماش بعناية؛ لأن هناك رجالاً ينظرون بعيون تعطي الشيء حقه إذا كانت الملابس جميلة، وتكون النساء مستعدات مع عبارات ناعمة إذا لم ينجح الأمر! لهذا نرتدي ملابس جميلة لتأكيد وجودنا، ونرتدي ملابسنا من أجل الآخرين، ونكن مدركات

أنهم سيحكمون علينا من خلالها. وكان ذلك الاهتمام والإعجاب جزءاً من اللعبة، تجعل كل الوقت والمال الذي تم إنفاقه يستحق ذلك. عانينا بكل سرور من وخزات شمع الساقين، وشدّ الملقط، وضيق الأحذية المدببة وبرودة التنورة القصيرة في ليلة شتاء. من قال: «ينبغي أن تعاني لتكوني جميلة»، كان يتكلم إلينا دون شك! كانت كل تلك الجهود تستحق العناء لإطلاق صفير الإعجاب والأحاديث الودية المبتذلة.

إذاً، ما الفائدة من كل ذلك إذا لم يكن هناك أحد، رجل، سيراه؟

«لماذا كنت أبذل جهداً كبيراً في الجاهلية؟ نقول: إن ذلك ليس لجذب اهتمام الرجال، وأننا نرغب بذلك فحسب، لكن ذلك ليس حقيقياً: في الكثير من الأوقات، يكون ذلك للتأثير على نساء أخريات أيضاً» صفوة.

على الأغلب، الأخوات في مجتمعنا وفي معظم الأماكن التي يكون بها المسلمون ملتزمين بدينهم، متواضعات للغاية، ليس هناك تصنّع، تفاخر أو تباهي بآخر المكتسبات، هذا لن يسجل أي نقاط. لهذا لا يوجد صورة ينبغي الحفاظ عليها، لا أحد يراقب ليرى ما إذا كنت قد ارتديت ذلك الفستان في حفلة الزفاف الأخيرة، أو كانت حليك تناسب ما ترتدينه. شعرت الكثيرات منا بالسعادة؛ لأنهن وفّرن كل ذلك العناء. على أي حال، يمكن أن يؤثر جو التواضع ذاك «سلبياً» على المرأة التي اعتادت الحضور بشكل دائم في عروض الأزياء المختلفة. بالنسبة لها، إنها حالة انعدام الصورة، وانعدام الجهد!

دخلت في نقاش مثير مع سعاد وآسيا حول سبب ارتدائنا للملابس كما كنا نفعل في الجاهلية، وموقفنا من الملابس الآن.

آسيا: «مقارنة بما كنت عليه في الجاهلية، أشعر بأنني قد حرّرت نفسي. جزء مني يشعر أنها مضيعة للوقت أن نبدو بمظهر حسن بين النساء».

نعيمة: «عندما كنت ترتدين تلك الملابس في الجاهلية، لمن كنت ترتدينها حقاً؟».

آسيا: «الرجال، بالطبع!».

نعيمة: «أنتِ لا تقولين ذلك جزافاً، أليس كذلك؟ هل كان الرجال السبب حقاً؟».

آسيا: «بالتأكيد، والنساء الأخريات أيضاً».

سعاد: «بشكل أساسي، كان ذلك لإثارة إعجاب الجميع. لأكون صادقة، كنت أريد من الجميع، من كبار السن إلى الشباب، من الذكور إلى الإناث، وحتى الكلب أن يديروا رؤوسهم نحوي! كنت أريد أن يدرك الجميع أنني ملكة ذلك اليوم!».

هذه هي القضية التي كان على الأخوات مواجهتها عندما يبدأن تغطية أنفسهن. هل سيتركن حقاً أنفسهن دون عناية بسبب عدم وجود جمهور يقدّرهن بعد ذلك؟ اكتشفت أن لدي فرصة لرؤية ما إذا كان ما حافظت عليه دائماً حقيقياً، أنني ارتديت ملابس جميلة من أجلي وليس من أجل الآخرين. ولأنني حافظت دائماً على ذلك الموقف بقوة (برغم أنني لا أعتقد أن ذلك كان بنسبة 100% في ذلك الوقت!)، كانت لدي وجهة نظر أثبتها. كنت مصممة على أن الحجاب لن يحوّلني إلى امرأة رثّة الملابس!

«أعـرف أن الكثير من النسـاء المسـلمات يقلن: «اعتـدت على تلك الملابـس، لكن ذلـك لا يزعجني، لهذا ما الفائـدة؟». لم أفهم أبداً ذلك المبدأ بالالتزام، وعدم الانزعاج في الوقت نفسه. بالنسبة لي، أعتقد أنني ينبغي أن أبدو بأفضـل مظهر. بالمحصلة، أنتن ما زلتن نسـاء وما زلتن جميلات، ما شـاء الله. لا أقـول الآن: إنك يجب أن تكوني مثيرة من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك، لكن هذا لا يعني أن ترتدي ملابس فضفاضـة وجوارب داكنة طيلـة اليوم! لا أعتقد أنـه ينبغـي أن يكون هناك هذا التغيير المفاجـئ: «أنا ملتزمة الآن، سوف أبدو مثل متشردة»» رابية.

برغم أن معظم الأخوات، إما يندمن أو يضـحكن على ملابسـهن التي كـن يرتدينهـا قبل أن يعتنقن الإسـلام، إلا أنني اكتشـفت أن عالية لديها مقاربة مختلفة عن الموضوع، ووجهة نظر لم أفكر بها من قبل.

قالت لي: «عندما أصبحت مسلمة، لم يتغير موقفي من الملابس؛ لأنني رفضـت ارتـداء العباءة وتلك الأشـياء. كنت ما أزال أرتدي فسـاتين على الطراز الفرنسـي، وأضـع حجابي معها. لكن حالما بـدأت أرتدي العباءة، علـى ما أعتقد، كان ينبغـي بي التخلص من تلك الأشـياء، كان الأمر كما لو أنني أحاول التمسـك بها، ولم أكن أريد ذلك. لهذا تخلصـت منها. ثم أصبحت ملابسي رثّة تماماً. أعتقد أنني قضيت سنوات عديدة في محاولة تجميل نفسـي، وكنت أقضـي سـاعات في إزالة الشـعر عن سـاقيّ، أنتف حواجبي، وكل ذلك الهراء. شـعرت بأن الإسـلام لم يكن بشأن ذلك. أنتِ جميلة بغض النظر عن مظهرك. لهذا لم أعتقد أن عليّ بذل جهد كبير كما

كنت أفعل في الجاهلية. واستمتعت بعدم القيام بكل ذلك. شعرت بأنني تحرّرت من ذلك».

الجمال المخفي

على أي حال، حافظت أخوات أخريات على معاييرهن، من الجاهلية، وصولاً إلى الحجاب، والجلباب والنقاب.

«كان رمي ملابسي بعيداً أحد الأشياء التي لم أفعلها أبداً، وأنا سعيدة؛ لأنني لم أفعل ذلك، ما شاء الله. أعد نفسي مهتمة بالأزياء، وأعتقد أننا مثل النساء الأخريات في هذا المجال» صادقة.

اليوم، يوجد تحول كامل في المواقف المتعلقة بملابس المسلمة حديثاً، إلى درجة أن الأخوات المسلمات حديثاً يتلقين الآن نصيحة بعدم التخلص من كل ملابسهن الأنيقة، وعدم ارتكاب الغلطة نفسها التي ارتكبناها. تتذكر شريفة، التي اعتنقت الإسلام قبل بضعة شهور فقط، محاولتها التخلص من ملابسها: «كنت سآخذ كل ملابسي إلى مركز الصدقات، لكن شقيقتي سبقتني ووضعتها كلها في صناديق، ووضعت الصناديق في سقيفتها. عندما رأيت ذلك قلت: «كيف تجرئين على القيام بذلك؟ هذا قراري، وهذا ما أريد القيام به». من وجهة نظري، كانت تتدخل في حياتي. لكن بعد ذلك، تكلمت إلى الأخوات بشأن الأمر وأخبرنني أنه لا ينبغي بي التخلي عن ملابسي. قلن جميعهن: «مرحباً! احتفظي بملابسك يا فتاة!»».

خلال السنوات القليلة الماضية، أعتقد أنه كانت هناك نهضة طالت المجالات كافة في مجتمعنا الصغير، فيما يخص الأخوات. لن أنسَى أبداً

العشاء الخيري الذي نظّمته في منزلي لجمع التبرعات قبل سنتين. دعوته «ليلة الأميرة»، وكان على الجميع الحضور وهن يرتدين ملابس مثل الأميرات، ولم يكن مسموحاً اصطحاب الأطفال. قبيل تلك الليلة، لم يسبق لي أن رأيت مثل ذلك العدد الكبير من الأخوات دون أطفال، يظهرن بغاية الجمال وتبدو عليهن علامات الراحة. تناولنا الطعام، تكلمنا وضحكنا، فيما بدّلت إحدى الأخوات ملابسها في الطابق الأعلى. قالت إحدى الأخوات: «من الرائع رؤية كل الأخوات بهذا المظهر الرائع، لا تسنح لنا الفرصة دائماً لارتداء أفضل ملابسنا، أليس كذلك؟».

وبعدها، بدأت الأمور تتغير. فجأة، بدأت الأخوات يرتدين ملابس أنيقة عند الذهاب إلى منازل بعضهن، ويضعن لمسة من التبرّج، وربما بعض الحلي، وكل ذلك تحت ملابسهن الخارجية. أصبحت الأعياد، وحفلات الزفاف، والمناسبات الأخرى، كما هي في مجتمعات أخرى، احتفالاً بالثقافات المختلفة في مجتمعنا ـ كانت تشيونغزام الصيني، ملابس نوم كورتا، الجلابية مع غطاء الرأس واللباس المفضل لدى الجميع ـ الدرعة الصومالية التقليدية من دبي ـ جاهزة لذلك اليوم ويتم ارتداؤها مع وضع أشكال من الحنّة، والخلاخيل، والأقراط المتدلية من الأذن، والخفّين اللذين يمكن ربطهما، وحلي الشعر والمسحوق اللامع الذي يوضع على الجسد. بدأنا نقيم أيام جمال بانتظام في مواقع مختلفة من لندن. كانت تلك التجمعات تهدف إلى منح الأخوات استراحة ووقتاً للعناية بأنفسهن في أمكنة خاصة بهن، ودعم أولئك اللواتي كن خبيرات تجميل، مسّرحات شعر وفنانات حنّة. بدأت أخوات أخريات يعملن في تجارة الحلي الفضّية، الملابس الداخلية المغرية ومنتجات الجمال والعناية بالصحة، وكان كل ذلك يجد

سـوقاً جاهزاً بين الأخوات اللواتي كن يرغبن آنذاك بالعناية بأنفسهن كما فعلن من قبل، إن لم يكن أفضل. اليوم، هناك العديد من نشاطات الرشاقة والترفيـه المتاحـة للأخوات التي تـتراوح من اللياقة البدنيـة إلى التمارين الرياضـية إلى الكيغ بوكسينغ والسـباحة. هناك أيضاً قاعة جمباز يذهب إليها المسلمون، تخصص أياماً للإخوة وأياماً للأخوات. آمل فعلاً أن تكون أيام «ملابس المسلمة حديثاً» قد ولّت إلى غير رجعة.

على أي حال، هذه النهضـة مقيدة بعدد من العوامل المتنوعة. ما تزال الأخـوات حـذرات من الإفراط في ارتـداء الملابس أو وضـع التبرّج، وعلى درايـة أنهـا مجرد أشـياء مادية، بالمحصـلة. أيضـاً، هنـاك بالتأكيد في مجتمعي رغبة قوية دائمة لتفادي المنافسة بين أنفسنا والحكم على بعضنا وفقاً لحسن مظهرنا أو الجهد الذي بذلناه في ذلك. كانت تلك العوامل قد منعت خروج الأمور عن نطاق السيطرة، وأن تتحول إلى عامل ضغط لنبدو بمظهـر معين ونرتدي أشـياء معينة اختبرناها جميعنـا في الجاهلية. كما قلت مرة إلى زبيدة: «شـعرنا بالضـغط الناجم عن «حافظي على عباءتك طيلة الوقت»، لأننا أردنا أن يكون مظهرنا جيداً. لكن هناك بعض الأخوات اللواتـي لا يرغبن أو لا يسـتطعن ارتداء ملابس معينة لكل مناسـبة. ربما يشـعرن بأن الضـغط لنزع العباءة وارتداء ملابس جميلة هو اضطهاد في حـد ذاته». لهذا لم تسـيطر تلك النزعة على حياتنا، لم نصـبح ضـحايا الأزياء، ولا نرتدي ما هو جديد في كل حفلة، لكننا لم نعد نشـعر بالحاجة للاعتذار عن مظهرنا الجيد بين أخواتنا عندما نرغب بذلك.

علـى أي حال، لا يسـتطيع الكثير من الناس تجاهـل حقيقة أننا نغطي أنفسـنا مـن الخارج وتكون ملابسـنا جميلة من الداخل. ليس غير شـائع

بالنسبة لأخت أن تجد نفسها موضع تمحيص دقيق بشأن الفستان المفتوح عند الصدر، السراويل المثيرة أو الملابس الداخلية المغرية التي تشتريها.

«أعتقد أن الناس يشعرون بأن النساء المسلمات لا يرتدين ملابس أنيقة، وأنهن لا يحببن أن يسرّحن شعرهن، أو يضعن التبرّج. أحياناً، تدخلين إلى محل وينظرون إلى ما تختارين شراءه كأنهم يقولون: «مهلاً دقيقة، ماذا ستفعل بذلك؟ لماذا تختار تلك التنورة، ذلك القميص؟». يمكن أن يصبح الأمر مزعجاً أحياناً» أم محمد.

كنت قد اكتشفت أيضاً أنه من المثير للاهتمام الاستماع إلى الجيل الأصغر من الفتيات اللواتي يغطين أنفسهن، أولئك اللواتي ترعرعن مع الإسلام، يتكلمن حول مواقفهن بأن يظهرن بشكل حسن. كانت رميثة البالغة من العمر ست عشرة سنة تغطي وجهها منذ سنوات عديدة، وأردت أن أعرف كيف أصبحت فجأة محترفة بعمل ظلٍ لامع للعيون!

قالت لي: «أعتقد أنك عندما تكبرين، تصبحين أكثر اهتماماً بمظهرك وتجرّبين أشياء مختلفة. كنت أحب الأزياء عندما كنت أصغر سناً، لكن والدتي كانت تقرر ما أرتديه عندما أخرج. الآن، أذهب عادة إلى المحال بنفسي وأختار ملابسي، برغم أنني ما زلت أطلب رأيها في أشياء معينة. لكن والدتي خبيرة تماماً، وحذرة للغاية فيما يتعلق بالأزياء».

وعلى اعتبار أن الملابس غالباً ما تكون إحدى ساحات المعارك بين المراهقات المسلمات وأهاليهن، أردت أن أعرف كيف تشعر والدتها، أم محمد، التي كانت تهتم كثيراً بالأزياء فيما مضى، بشأن نمو إحساس ابنتها بالأزياء. أصابتني دهشة كبيرة تماماً عندما سمعت أنها تدعمها تماماً.

قالت لي: «كنت أقول لرميثة دائماً أن ترتدي ملابس أكثر أناقة، لكنها لم تكن ترتديها، لم تكن تضع أقراطاً، ولم تكن تسرّح شعرها، ولم تكن ترغب بارتداء ملابس جميلة. سأقول: إنها عندما كانت أصغر سناً، كانت جبانة، حتى بجوار الأخوات. لكن حالما كبرت قليلاً، نمت ثقتها بنفسها وأصبحت أكثر اهتماماً بأن تبدو أنيقة. وهذا رائع لأن ذلك تحت ثوبها الخارجي على أي حال».

تبيّن أنه حتى بالنسبة لمراهقة نشأت تغطي نفسها، لم يقمع الحجاب رميثة ونظرتها في العناية بنفسها وارتداء أجمل الملابس.

حجابي، شخصيتي

يرغمك ارتداء الحجاب على النظر إلى صورتك الذاتية، دوافعك ونواياكِ بعين نقدية. لأنه ينبغي بالمرأة المسلمة عدم إظهار زينتها، قد يقود هذا إلى أزمة نوايا: إذا لم تظهري أي زينة، ما هي الفائدة من اقتنائها؟ وبرغم أننا، في بداية إسلامنا، عانينا من هذا السؤال، إلا أن معظمنا توصل إلى قناعة بأن المظهر الحسن والحفاظ على الشخصية ينبغي أن يكون مسألة احترام ذاتي وعناية بالنفس، بغض النظر عمن يستطيع أو لا يستطيع رؤيتنا. لهذا نرتدي الآن ملابس من أجل أنفسنا فعلاً، وليس للحصول على استحسان الآخرين. هذه الأيام، عندما أتكلم إلى أخوات حول كيف يشعرن بأنفسهن ومظهرهن تحت الحجاب، أحصل على رد إيجابي جداً. لا تشعر إحدانا بأي توتر مهما كان بين التغطية من الخارج وارتداء أجمل الملابس من الداخل. يبدو الأمر كما لو أن الأجنحة متعددة الألوان، تحت طبقات القماش، تنبسط وتنتشر وتجعل الأخوات يحلقن عالياً.

بالنسبة للّواتي اخترن منا العيش وفقاً لشريعة الله، سواء اعتنقن الإسلام أم ولدن مسلمات، الحجاب يعني أشياء كثيرة لنا: إنه ستارنا، محرّرنا، رمز عبوديتنا للمولى عز وجل. إنه لا يشكل عبئاً غير مرغوب، أو ضلالة، وليس رمزاً لاضطهادنا: إنه جزء أساسي من هويتنا بوصفنا نساء مسلمات. وأولئك الذي يعملون ما بوسعهم «لتحريرنا» منه، يحسنون صنعاً بالإصغاء إلى أصوات أولئك الساعيات إلى الحرية؛ لأن حرية امرأة، مهما كانت النوايا صادقة، قد تكون سجناً لامرأة أخرى.